(١)

دروس وعبر من تحويل القبلة

الحمد لله رب العالمينَ ، القائلِ في كتابه الكريم : {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلـهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه ، وَعلَى آله وصحبِهِ أجمعين .

وبعـــد :

فإن العطايا الربانية ، والنفحات الإلهية للأمة المحمدية في شهر شعبان أكثر من أن تحصى أو تعد ، وإن من الأحداث العظيمة التي نحتفي بها في شهر شعبان حدث تحويل القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام ، ذلكم الحدث الذي يعدّ من أهم الأحداث في تاريخنا الإسلامي ؛ حيث استجاب الحق (سبحانه وتعالى) لرغبة حبيبه ومصطفاه (صلى الله عليه وسلم) ، وحقق له أمله ورجاءَه بالتوجه في الصلاة إلى الكعبة المشرفة ، قبلة أبيه إبراهيم (عليه السلام) .

فقد كان (صلى الله عليه وسلم) قبل الهجرة يتوجه في صلاته – بأمر ربه – إلى بيت المقدس ، واستمر على ذلك بعد هجرته إلى المدينة ستة عشر شهرًا – أو سبعة عشر شهرًا – ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يتلهف شوقًا إلى نزول الوحي عليه يأمره بالتوجه إلى المسجد الحرام ، فكان يرجو الله (تعالى) بقلبه ، ويدعوه سبحانه بلسان حاله ، موقنًا بأن ربه (جل في علاه) سيحقق رجاءَه ، فاستجاب الله تعالى له ، وأمره أن يتوجه في صلاته إلى الكعبة المشرفة ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه : {قَدْ نَرَى

تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ}.

ومما لا شك فيه أن المتدبر بعين الاعتبار والعظة في حدث تحويل القبلة يقف على الكثير من الدروس والعبر المستفادة من هذا التكريم الإلهي للنبي (صلى الله عليه وسلم) ، ومن أهم هذه الدروس : عظيم مكانة النبي (صلى الله عليهِ وسلمَ) ورفعة شأنه ، وبيان منزلته عند ربه ، وهو ما يتجلى في قول الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وسلم) : {فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا} ، فضلًا منه ومِنَّةً وكرمًا ، وبيانًا لعظيم منزلة نبينا (صلى الله عليه وسلم)، تماما كما قال له : {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} ، وامتدادًا لفضل ربه سبحانه عليه ، كيف لا؟ وهو الذي شرح له صدره ، فقال : {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} ، ووضع عنه وزره، فقال : {وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ} ، وغفر له ذنبه ، فقال : {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} ، وزكى لسانه ، فقال : {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى} ، وزكى فؤاده ، فقال : {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} ، وزكى عقله ، فقال : {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى} ، وزكى بصره ، فقال : {مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى} ، وزكى مُعلمه ، فقال : {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى} ، وزكى خُلقه ، فقال : {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ}، وزكاه كله ، فقال : {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}.

ومن الدروس المستفادة من تحويل القبلة : وجوب تمسك الأمة بالمنهج الوسطي المعتدل ، فلقد أصّل هذا الحدث العظيم مبدأ وسطية هذه الأمة ، حيث يقول الحق سبحانه : {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ}.

تلك الوسطية التي يتسع مفهومها ليشمل كل مناحي الحياة دون إفراط أو تفريط، فهي العدل والحُسن ، والتوسط والتوازن ، وحري بنا أن نعود إلى هذه الوسطية التي شرفنا الله (عز وجل) بها ، وأن نكون حقًّا وسطيين في جميع شئوننا ، حيث

يقول الحق سبحانه : {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا}، ويقول سبحانه : {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} . ويقول الإمام الأوزاعي (رحمه الله) : "ما أمر الله (عز وجل) في الإسلام بأمر إلا حاول الشيطان أن يأتيك من إحدى الجهتين ، لا يبالي أيهما أصاب؛ الإفراط ، أو التفريط"، ومن هنا يجب أن نلتزم منهج التيسير والسماحة ، لا منهج التسيب والتفريط، منهج الالتزام الديني والقيمي والأخلاقي ، دون أي تشدد ، أو تطرف .

ثم إن شهادة أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) على سائر الأمم – على قدر ما تقتضي من التكريم – تلزم الأمة أن تقوم بواجبها حق القيام حتى تكون أهلًا لهذه الشهادة ، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (يُؤْتَى بِنُوحٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُقَالُ لَهُ : هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ يَا رَبِّ ، فَتُسْأَلُ أُمَّتُهُ هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ : مَا جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ ، فَيَقُولُ : مَنْ شُهُودُكَ ؟ فَيَقُولُ : مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ ، فَيُجَاءُ بِكُمْ فَتَشْهَدُونَ) ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}.

ومن الدروس المستفادة من تحويل القبلة : سرعة استجابة المؤمنين لأمر الله تعالى وأمر رسوله (صلى الله عليه وسلم) : فهذا الحدث كان علامة فارقة في ثقة الصحابة (رضي الله عنهم جميعًا) في كل ما أتاهم به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من عند الله (عز وجل) ، فقد شرح صدورهم للحق ، حيث يقول الحق سبحانه: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ} ، فضربوا أروع الأمثلة في

سرعة الاستجابة لله (عز وجل) ولرسوله (صلى الله عليه وسلم) ؛ فبمجرد صدور الأمر الإلهي بالتحول في الصلاة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام ، استجاب المؤمنون لهذا الأمر ، وتحولوا – وهم في صلاتهم – موقنين طائعين غير مجادلين إلى بيت الله الحرام لإتمام صلاتهم ، فما انتظروا حتى تنتهي الصلاة ، وما ترددوا في الامتثال للأمر ؛ وإنما تحولوا في الحال – وهم في هيئة الركوع – من بيت المقدس إلى البيت الحرام ، فعن ابْنِ عُمَرَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) ، قال : (بَيْنَما النَّاسُ بِقبَاءٍ فِي صَلاَةِ الصُّبْحِ ، إِذْ جَاءَهُمْ آتٍ ، فَقَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) قَد أُنْزِلَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ قُرْآنٌ ، وَقَدْ أُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةَ فَاسْتَقْبِلُوهَا ، وَكَانَتْ وُجُوهُهُمْ إِلَى الشَّامِ ، فَاسْتَدَارُوا إِلَى الْكَعْبَةِ) .

ومن الدروس أيضًا : أهمية الصلاة ومكانتها ، وبيان رحمة الله تعالى الواسعة بعباده ؛ فقد ربط القرآن الكريم بين الصلاة وبين حدثين عظيمين يعدان من أبرز الأحداث في تاريخ الإسلام : معجزة الإسراء والمعراج ، حيث فرضت الصلاة من فوق سبع سماوات ليلة الإسراء والمعراج ؛ بيانًا لعظيم شأنها ، وجليل قدرها ، كما ربطها القرآن الكريم بحدث تحويل القبلة ، وعبر عنها بلفظ الإيمان ، فقال تعالى : {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ } أي صلاتكم السابقة ، فعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال : لما وُجِّه رسوله الله (صلى الله عليه وسلم) إلى الكعبة ، قالوا : كيف بمن مات من إخواننا قبل ذلك وهم يصلون نحو بيت المقدس ؟ فأنزل الله جل ثناؤه : {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} فهذه طاعة ، وتلك طاعة ، وفي ذلك طمأنة لهم على قبول صلاتهم السابقة تجاه بيت المقدس ، ثم جاء ختام الآية بردًا وسلامًا على قلوب المؤمنين وترغيبا للناس أجمعين ، حيث يقول سبحانه : {إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ

رَحِيمٌ} ، فإذا كان الله تعالى رءوفًا رحيمًا بالناس ، فهو أشد رأفة ورحمة بعباده المؤمنين .

ومن الدروس والعبر المستفادة من تحويل القبلة ، الرباط الوثيق بين المسجد الحرام بمكة المكرمة والمسجد الأقصى بالقدس الشريف ، وإظهار العلاقة القوية بينهما ، فالمسجد الحرام هو أول مسجد وضع لعبادة الله (عز وجل) في الأرض ، والمسجد الأقصى هو ثاني المساجد ، فعن أَبِى ذَرٍّ (رضي الله عنه) قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الأَرْضِ أَوَّلُ ؟ قَالَ : (الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ)، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ :(الْمَسْجِدُ الأَقْصَى)، قُلْتُ : كَمْ بَيْنَهُمَا ؟ قَالَ: (أَرْبَعُونَ سَنَةً ، وَأَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاَةُ فَصَلِّ فَهُوَ مَسْجِدٌ) .

لقد ربط تحويل القبلة بين المسجدين برباط وثيق كما ربط الإسراء والمعراج بينهما كذلك ، فقال الحق جل شأنه : {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}، ومن ثم يجب حمايتهما معًا، وعدم التفريط في أي منهما ، فهما أمانة في أعناق المسلمين جميعًا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

الحمد لله رب العالمينَ ، وأشهدُ أن لاَ إلهِ إلا اللهُ وحدَه لاَ شريكَ له ، وأشهدُ أنّ سيدَنا ونبينَا مُحمّدًا عَبدهُ وَرَسُولُه ، اللهُم صَلّ وسلمْ وباركَ عليهِ ، وعَلى آلهِ وصحْبهِ أَجمعينَ ، ومن تبعهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّين .

إخوةَ الإسلام :

لقد تميزت حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) بالإيجابية في كل مراحلها ، فقد شهد (صلى الله عليه وسلم) وهو في الخامسة عشرة من عمره حلف الفضول الذي تداعت إليه قبائل قريش واجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان، وتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها أو من غير أهلها إلا نصروه ، وكانوا على من ظلمه يدًا واحدة حتى يردوا إليه حقه ، قال (صلى الله عليه وسلم) : (لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِيَ بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ).

وفي الخامسة والثلاثين من عمره شارك (صلى الله عليه وسلم) في تجديد بناء الكعبة بحمل الحجارة على كتفيه ، وقضى على بوادر خلاف عظيم كاد يحدث بين بطون قريش آنذاك حينما تنازعوا فيما بينهم رغبة في أن ينال كل منهم شرف وضع الحجر الأسود مكانه ، فنزلوا على رأي رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الذي مُثّلت فيها القبائل كلها في وضع الحجر في مكانه.

ثم كان (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بعد البعثة أسوة وقدوة في الإيجابية ، كما كان أسوة وقدوة في كل شيء ، فكان (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أحسن الناس ، وأشجع الناس، وأكرم الناس ، وعن عَلِيّ (رضي الله عنه) قال : (كُنَّا إِذَا حَمِيَ الْبَأْسُ ، وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَلَا يَكُونُ أَحَدٌ مِنَّا أَدْنَى إِلَى الْقَوْمِ مِنْه) ، وقد شارك (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أصحابه في حفر الخندق .

ولقد حث النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أمته على الإيجابية وحذّرها من السلبية فقال (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لا يكُنْ أحَدُكُمْ إِمّعَة ، يقول: أنا مع الناس ، إِن أحْسَنَ

الناسُ أحسنتُ. وإن أساءوا أسأتُ ، ولكن وَطِّنُوا أنفسكم إن أحسن الناسُ أن تُحْسِنُوا، وإن أساءوا أن لا تظلِمُوا).

والإيجابية تعني ، شعور الإنسان بمسئوليته تجاه دينه ووطنه ، فحب الإنسان لوطنه لا يقف عند المشاعر والعواطف والأحاسيس فحسب ، وإنما ينبغي أن يترجم إلى سلوك وعمل ، فالإنسان الإيجابي: هو الذي يتفاعل مع قضايا مجتمعه ، ويتأثر بمحيطه ويؤثر فيه بكل ما هو نافع .

ولا شك أن من مظاهر الإيجابية المشاركة الجادة في كل ما يخدم المجتمع ويؤدي إلى بناء الدول والحفاظ على أمنها واستقرارها وتقدمها ، سواء أكان ذلك بالدفاع عنها ، أم بالعمل والإجادة والإتقان ، أم بالتكافل والتراحم بين أبناء الوطن الواحد ، أم بالمشاركة الإيجابية الجادة في كل الاستحقاقات الدستورية والوطنية مع التحلي بأقصى درجات الأمانة في تقديم كل ما من شأنه رفعة الوطن وفق ما يمليه الضمير الوطني الحر على كل وطني شريف ، حيث يقول شوقي :

وَلِلأَوطانِ في دَمِ كُلِّ حُرٍّ يَدٌ سَلَفَت وَدَينٌ مُستَحِقُّ

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ،
وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ،
واحفظ مصر وشعبها وجيشها وشرطتها .